علم دراسة المستقبل ★

للأستاذ الدكتور أحمد صدقى الدجانى

مدخل :

« دراسة المستقبل » مصطلح شائع فى حياتنا المعاصرة ، يتردد على الألسنة . وهو يدل على « جهد علمى » لاستشراف المستقبل وتشوّفه ورؤيته بغية إحسان التعامل مع الواقع القائم ، والسعى لتحقيق أهداف محددة .

ويؤثر البعض للدلالة على هذا الجهد العلمى مصطلح « علم المستقبل » .

لقد أصبح مألوفاً حين يجرى الحديث عن العلوم فى عالمنا المعاصرأن تذكر من بينها « دراسة المستقبل » أو « علم المستقبل » وإن اختلف الخبراء فى موقع هذه « الدراسة » بين العلوم وفى تصنيفها .

الاهتمام اليوم بدراسة المستقبل عامٌ فى مختلف دوائر العالم الحضارية ، لا يقتصر على واحدة منها دون أخرى . وهو على أشده فى دائرة. حضارة الغرب التى أولت عناية خاصة للدراسات المستقبلية وللقيام بها وفق « منهج علمى » فى هذا القرن العشرين الميلادى .

يشهد وطننا العربى منذ عقد السبعينيات اهتماماً متزايداً « بدراسة المستقبل » . ويتجلى هذا الاهتمام فى ترجمة بعض ما كتب عن « المستقبلية » فى اللغات الأخرى ، وفى قيام بعض الكتاب العرب بالكتابة عنها وتأليف كتب فيها تتضمن « رؤى مستقبلية » وفى إنجاز مشروعات بحثية لاستشراف المستقبل حملت اسم « الاستشراف » ، وفى تأسيس جمعيات تعنى بدراسة المستقبل .

لقد حاولت الجهود العربية العلمية على صعيد « دراسة المستقبل » الإسهام فى تحديد مفهوم « الدراسة المستقبلية » ، والقيام، بتأصيل هذا الجهد العلمى الحديث وتتبع جذوره

(*) ألقى البحث فى الجلسة الحادية عشرة للمؤتمر المنعقدة يوم الأربعاء ٢٥ من شوال سنة ١٤١٤ هـ الموافق ٦ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٤ م .

فى أرض حضارتنا العربية الإسلامية من خلال علوم الأقدمين ، والبحث فى المنهج الأنسب لهذا النوع من الدراسة ، وطرح مصطلحات تستخدم فيها .

سأعمد فى هذا الحديث إلى تسليط أضواء كاشفة أخرى على هذه الجهود متابعاً ما قمت به قبل ثلاثة أعوام فى بحثى « دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة » الذى قدمته فى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض ، وأخرجته فى كتابى « عن المستقبل » ، وضمنته عصارة اشتغالى بالدراسات المستقبلية على مدى عقدين من السنين . كما سأطرح فى الحديث أسئلة تتعلق بموضوع مؤتمرنا لهذا العام فى هذا المحفل العظيم وهو « تعريب العلوم » على صعيد « دراسة المستقبل » .

دراسة المستقبل : مفهوماً واسماً وتصنيفاً

مفهوم « دراسة المستقبل » ، كما توافق عليه المشتغلون بها هو أنها اجتهاد علمى منظم يرمى إلى صوغ مجموعة من « التنبؤات المشروطة » تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع ما أو مجتمعات عبر فترة عقدين أو أكثر قليلاً ، وتنطلق من بعض الافتراضات الخاصة حول الحاضر والماضى لاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع أو المجتمعات . وقد سماها البعض نمطاً علمياً فى التنبؤ يعتمد الحساب . وأكد الجميع على أنها تخضع لشروط تنأى بها عن أن تكون عملاً خيالّياً طوباويًا » . وقد شرحتُ هذا المفهوم فى بحثى عن دراسة المستقبل بقولى عنها إنها محاولة علمية تتكامل فيها الدراسات لمعرفة جوانب صورة الحاضر وتحليلها ، وتلاحظُ فيها السنن ومجرى الحركة التاريخية من خلال دراسة الماضى ، ويكون الانطلاق من ثم إلى استشراف المستقبل وتشوفه وطرح ملامحه والتوقعات التى يحتمل حدوثها فيه استمراراً للحركة التى تحكم الواقع ، والبدائل والخيارات القائمة . ولا يغيب عن البال فى هذا الطرح دور إرادة الفعل عند الإنسان والمجتمع الإنسانى فى الاختيار وصنع المستقبل وترجيح بديل على آخر . كما لايغيب عن البال أيضا دور الحلم عند الإنسان والمثل الأعلى عند المجتمع الإنسانى فى صنع إرادة الفعل ، ومن ثم توفير القدرة على الفعل من أجل تحقيق أهداف بعينها . فالإنسان قادر

على أن يكون فاعلاً فى الأحداث . وهكذا فإن الحديث المستقبلى يوظف المعرفة للفعل والتأثير ، ويحاول تحديد ما ينبغى دون الغفلة عن توقع ما سيكون . والغاية أن تتوافق من خلال الفكر والإرادة والقدرة صورة الآمال مع صورة التوقعات ، وتتفاعل فى هذا الحديث المستقبلى العوالم الثلاثة لدى الإنسان : عالم التذكر وعالم التفكر وعالم التخيل .

سؤال أول يبرز فى ضوء تحديد مفهوم « دراسة المستقبل » ، هو : هل هذا الاجتهاد العلمى المنظم فى « النظر المستقبلى » علم بالمفهوم الحديث لمصطلح العلم ، فيمكن تسميته « علم المستقبل » ؟

لقد اجتهد بعض المشتغلين الأوائل بدراسة المستقبل وأطلقوا على هذا النمط العلمى فى الاهتمام بالمستقبل مصطلح « علم » ، ومنهم « جاستون بيرجر » الفرنسى الذى طرح اسم « علم الريادة » عام ١٩٦٠ ، « وأوسيب فليشتم » الألمانى الذى استخدم اسم « علم المستقبل » عام ١٩٦٦ فى كتابه « علم التاريخ وعلم المستقبل » . وهناك من تحدث عن « علم حساب المستقبل » كما ذكر زكى نجيب محمود فى مقاله « المستقبل المحسوب » الذى تتبع فيه بدايات الاهتمام بدراسة المستقبل منذ مطلع القرن العشرين . ولايزال هناك كثيرون اليوم يستخدمون مصطلح « علم المستقبل » مطمئنين له للتأكيد على أنه اجتهاد علمى يتم وفق منهج علمى ، ولتمييزه عن جميع صور التنبؤ الأخرى التى عرفها الإنسان القائمة على الرجم بالغيب .

هناك كثيرون آخرون من المشتغلين بدراسة المستقبل لا يميلون إلى اعتبارها علماً تجريبيًا اختيارياً مع معرفتهم بالحرص فيها على اعتماد المنطق الاختبارى . وذلك لأنها تتطلب فى نهاية المطاف « رؤية » يكون للفطنة والحدس دور فى بلورتها من خلال اعتماد « النظرة الشاملة » . ونلاحظ أن آلفين توفلر وهو من أشهر المشتغلين بالدراسة المستقبلية آثر أن يصفها فى رابع كتبه « خرائط المستقبل » ، بأنها « فن وليست شكلا هندسيا » . وقال : وليأتِ العُلم لمساعدة الفنً وقد حسم المهدى المنجرة صاحب الباع الطويل

فى الدراسة المستقبلية فى إجابته عن التساؤل حول كونها علما بقوله : « ليست الدراسات الاستقبالية بعلم وإن استعانت منهاجياتها ببعض العلوم الدقيقة والاجتماعية » . وهذا هو الموقف الذى نطمئن إليه ، وهو ما دعانى إلى تجنب استخدام مصطلح علم المستقبل فى دراساتى المستقبلية ، آخذاً فى الاعتبار أن حدّ العلم عند علمائنا هو « الاستيقان والتبّين » وأننا من حضارة تحكمها رؤية مؤمنة تؤمن بالغيب ، وأن الله سبحانه هو « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول .. » (٢٦،٧٢) وبعض المستقبل يقع فى دائرة الغيب .

سؤال ثان يبرز فى ضوء ما سبق يتعلق بالمصطلح الأفضل للدلالة على هذا الاجتهاد العلمى : ما هو الاسم الذى نطلقه على الدراسات المستقبلية ؟

حين بدأت العناية بالاجتهاد العلمى لدراسة المستقبل تتنامى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، استخدم البعض للدلالة عليه مصطلحاً جديداً ، من الناطقين بالإنجليزية ، هو futurology

واستخدم البعض من الناطقين بالفرنسية مصطلح Futurologie وترجم المصطلحان إلى اللسان العربى « بعلم المستقبل » أو « المستقبلية » . واختار (جاستون برجر) الفرنسى رائد دراسة المستقبل فى فرنسا مصطلح Prospective للدلالة على دراسة المستقبل . وهو من فعل Prospecter أى نقب وفحص بتدقيق وانتظام وفاعلة Prospecteur أى منقب ومكتشف . وترجم البعض هذا المصطلح « بعلم الريادة » ثم آثر آخرون مصطلح « الاستشراف » . ولم يلبث أن استخدم البعض من الناطقين بالإنجليزية مصطلح Discipline of studing the Future وترجم بعلم دراسة المستقبل . واستخدم (آلڤين توفلر) فى أول كتبه « صدمة المستقبل » الذى صدر عام ١٩٧٠ ، واعتبر الأول من نوعه ، مصطلح Futurism الذى «ترجم بالمستقبلية» .

لم تلبث أن تعددت المصطلحات المستخدمة للدلالة على دراسة المستقبل منذ السبعينيات ،

وقد عرضها « محمد بريش » في دراسته « حاجتنا إلى علوم المستقبل » (مجلة المسلم المعاصر العدد ٦١ - خريف ١٩٩١) . ونقل ما جاء في استطلاع مجلة « الجمعية الدولية للمستقبل » بواشنطن في فبراير ١٩٧٧ واسمها Futurist أي « المستقبلي » . وأكثر هذه المصطلحات شيوعا وFutue Researches وFuture Analysis وFuture studies وFuturistics وFuturology وForecasting وPrognostics أما في اللغة الفرنسية فهناك مصطلحات ثلاثة هي : Prevision Prospective Planification

ترددت في وطننا العربي في أوساط المهتمين بدراسة المستقبل منذ السبعينيات مجموعة مصطلحات للدلالة على هذا « الاجتهاد العلمي » . فقد استخدم قسطنطين زريق مصطلح « رِيادة المستقبل » في كتابه « نحن والمستقبل » الذي صدر عام ١٩٧٥ . واستخدم زكي نجيب محمود مصطلح « علم حساب المستقبل » ومصطلح « المستقبلية » في مقاله المستقبل المحسوب المنشور في كتابه مجتمع جديد أو الكارثة . وهناك من استخدم مصطلح « استكشاف المستقبل » . وما لبث أن شاع مصطلح « استشراف المستقبل » الذي استخدمه مشروع استشراف مستقبل العالم العربي في مركز دراسات الوحدة العربية . واستخدم المهدي المنجرة « الدراسات المستقبلية » و « المستقبلية » . وتردد في دراسة محمد بريش مصطلح «علم المستقبل » و « علوم المستقبل » مستخدما كلمة « علم » بالمفرد وبالجمع ، مع قوله « وما نستطيع الجزم به الآن هو أن « علم المستقبل » ليس من العلوم البحتة التي تعتمد تحليلاً يوصل إلى نتائج نهائية » . ولقد كان المصطلح الذي آثرت استخدامه في كتابي « عن المستقبل » هو « دراسة المستقبل » للدلالة على الجهد العلمي « والدراسات المستقبلية » للدلالة على الدراسات التي يثمرها ، واستخدمت بعد تفكر مصطلحات ثلاثة هي : « الاستشراف » و « التشوف » و « الرؤية » للدلالة على خطوات في عملية دراسة المستقبل ، ومصطلحاً رابعاً هو : « الصنع » للدلالة على دور « إرادة

الفعل » فى رسم صورة المستقبل ، ومصطلحاً خامساً هو : « النظر المستقبلى » . وهكذا تحدثت عن استشراف المستقبل وتشوّفه ورؤيته وصنعه والنظر فيه . وواضح أننى تجنبت فى كل هذه المصطلحات كلمة « علم » وأجد لزاما علىّ أن أشير بأننى لمست فى الحوارات التى دارت حول هذه النقطة فى محاضرات وندوات تناولت المستقبل ، ميلاً عند البعض لاستخدام مصطلح « علم » للدلالة على العلمية فى منهج دراسة المستقبل والتمييز بينها وبين التنبؤ رجما بالغيب . الأمر الذى يجعلنى أتساءل اليوم عن أفضلية ترجيح مصطلح « علم دراسة المستقبل » لأن هذه الدراسة وإن لم تكن من العلوم البحتة فإنها تحرص على علمية المنهج . كما أشير إلى أن مصطلح « علوم المستقبل » الذى جاء فى دراسة محمد بريش ، استخدمه أحمد شوقى فى كتابه « العلم ثقافة المستقبل » للدلالة على ما سيكون عليه حال العلوم المختلفة فى الأيام القادمة .

سؤال ثالث يبرز حول تصنيف « علم دراسة المستقبل » بين العلوم ، ضمن أى من العلوم نُصنفه ؟ .

أكثر من إجابة يطرحها خبراء دراسة المستقبل عن هذا السؤال . فمنهم من يصنفه ضمن علم الاجتماع ، ومنهم من يعتبره فرعاً من علم الاجتماع التاريخى ، ومنهم من يراه امتداداً لعلم التاريخ . وقد أخذتُ بهذا الرأى الأخير حين قلت فى كتابى « ماذا بعد حرب رمضان .. فلسطين والوطن العربى فى عالم الغد » الذى صدرعام ١٩٧٤ « الدراسات المستقبلية هى امتداد للدراسات التاريخية ، فكلتاهما رحلة عبر الزمان الذى ميزّ الله سبحانه وتعالى الإنسان عن غيره من مخلوقاته بإدراكه . وهى تتناول بالحديث المستقبل من خلال النظر فى الحاضر والماضى .. » وبقيت مطمئنا إلى القول بأن دراسة المستقبل هى امتداد لدراسة الماضى حين ألقيت محاضرتى عن الدراسة التاريخية والمستقبلية أوائل عام ١٩٩٠ ضمن محاضرات المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، كما قلت فى كتابى « عن المستقبل » أجد نفسى اليوم راسخ الاقتناع بأن الدراسات المستقبلية هى

امتداد للدراسات التاريخية ، وهى من ثم تتطلب ما يتطلبه علم التاريخ من « نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » ، فى باطنه على حد قول ابن خلدون ؛ ثم هى تتطلب فضلاً عن ذلك تشوفاً . وقد تحدث ابن خلدون فى مقدمته عن « تشوف الأمور المستقبلية » بعد أن وصف الإنسان بأنه صاحب الفكر والرؤية . والحق أن الدراسة المستقبلية لا يمكن أن تتم إلا بالدراسة التاريخية ، فركن التاريخ هو أحد أركان ثلاثة فيها يتكامل مع ركن الحاضر المقيم وركن التشوُّف المستقبلى » .

تأصيل علم دراسة المستقبل :

إن هذا الحديث عن العلاقة بين علم دراسة المستقبل وعلم التاريخ واستحضار ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته عن « التشوف » يدعونا إلى تأصيل هذا الاجتهاد العلمى . والنزوع للتأصيل عند الإنسان فطرى وقوى بالنسبة لكل الأمور ، وهو نابع من حقيقة أن الناس « لعرق الثرى ، وأنهم نطف فى ظلمات الأصلاب طويلة السرى ، وأن أعمارهم مبتدأة من العهد القديم لآدم ، وقد أخذ ربك من ظهورهم ذرياتهم » ، على حد وصف الأصفهانى لهم فى « الفتح القدسى » وحاشا أن تكون الاستجابة لدعوة التأصيل من قبيل « السعى إلى نهج إسقاط التعابير المعاصرة على مفردات تراثنا اللغوى » ، أو « تحميل التاريخ ما لا يحتمل » لادعاء السبق ، كما يخشى البعض . وقد رأينا ايڤلن توفلر يستحضر صورة عراف دلفى الإغريقى ليوضح أن دراسة المستقبل « بعيدة جداً عن وسيط الوحى فى دلفى » .

لقد حرص المشتغلون بدراسة المستقبل من أبناء الحضارة العربية الإسلامية على الرجوع إلى القرآن الكريم مستلهمين آياته مستوحين هديه ، فوقفوا أمام مطلع سورة الروم ، وقوله تعالى فى سورة الحشر « ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ » ، والآيات التى تتحدث عن « الرؤية » وعن « السنن » ، وقصص الأولين وما فيها من ربط بين المستقبل والماضى ، وبخاصة قصة أولاد يعقوب فى سورة يوسف . كما حرص هؤلاء على استحضار سيرة رسول الله صلى

الله عليه وسلم وأحاديثه الشريفة ، وتمعنوا فيها ، فوجدوا من أقواله وبين فصول حياته شواهد كثيرة على ضرورة « النظر المستقبلى » وعلى « رؤية المستقبل » التى يوحى بها الوحى الإلهى للأنبياء والمرسلين . وكتاباتهم حافلة بما خرجوا به على هذا الصعيد . وقد ضمنت بعضه كتابى « عن المستقبل » .

والحق أن هذا الرجوع إلى القرآن والسنة هو استجابة لمتطلب دراسة المستقبل برؤية مؤمنة التى تختلف عن دراسة المستقبل برؤية دهرية ملحدة كما أوضحت فى « دراسة المستقبل برؤية مؤمنة » . وهو يثمر أفكاراً تغنى هذه الدراسة . وأسوق مثلاً صادفته وأنا أكتب هذه السطور ، حديث عبد العزيز كامل فى كتابه « القرآن والتاريخ » . عن « صناعة التاريخ » التى قصد فيها ما نسميه « صناعة المستقبل » وهو يستهل هذا الحديث بقوله « أقصد بصناعة التاريخ تطبيقه ، وذلك بالاستفادة من أوامر الله ونواهيه وسننه التى دعا الناس إلى الاعتبار بها وصياغتها حياة جديدة » . وقد وقف أمام سنن القرآن فى التاريخ ، وقدم نموذجاً من صناعة التاريخ بلا معجزات فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد بتصوير الإمام الشاطبى لهذه الصناعة ، ليصل إلى توضيح عامل الحركة ومسار التقدم مبيناً أن مسار التاريخ ينتظمه هدف كبير يوضحه القرآن « ولا مجال للنظرة المتشائمة التى تقول بانحدار التاريخ بعد عصر النبوة استنادا إلى حديث إن خيركم قرنى .. » .

حرص المشتغلون بدراسة المستقبل من أبناء حضارتنا أيضًا على العودة إلى تاريخنا الإنسانى منذ أقدم العصور . وقد أبرز بعضهم رمز « زرقاء اليمامة » الذى صاغه المثل العربى « أبصر من زرقاء اليمامة » وأشار إليه المقّرى فى مطلع قصيدته الشهيرة .

سبحان من قسم الحُظوظَ فلا عتاب ولا ملامْ
أعمى وأعشى ثم ذو بصرٍ وزرقاء اليمامْ

وذلك للتدليل على « النظر المستقبلى » وقوة « البصيرة » . كما حرص هؤلاء على النظر فى تراثنا العلمى فى مختلف حقول العلم والمعرفة بحثاً عن أحاديث فى دراسة المستقبل باعتبارها امتداداً لعلم التاريخ الذى كان لأجدادنا فضل

خاص فى إقامته على أساس علمى . والحق أن هذا التراث حافل بأقوال تحث على النظر المستقبلى ، مثل قول ابن المقفع على لسان دمنة وهو يتحدث عن أمور ثلاثة « العاقل جدير بالنظر فيها والاحتيال لها بجهده .. ومنها النظر فى مستقبل ما يرجو .. » ، وقوله « أعجز الملوك آخذهم بالهوينا ، وأقلهم نظرا فى مستقبل الأمور » كما أن فى هذا التراث ما يدل على اشتغال بالنظر فى المستقبل على عدة صعد ؛ صعيد النبوة ، وصعيد التاريخ ، وصعيد علوم الدين ، وصعيد الإدراك الروحانى .

مثلٌ بارز على هذا الاشتغال على صعيد النبوة كتاب ابن كثير « النهاية فى الفتن والملاحم » الذى تضمن « ذكر إخباره صلى الله عليه وسلم بالغيوب المستقبلة بعد زماننا هذا » . وتحدث عن « إشارات نبوية إلى الأحداث الماضية والمستقبلة حتى قيام الساعة » . وهدف الاشتغال بهذا النوع من دراسة المستقبل هو التعرف على رؤى النبى صلى الله عليه وسلم الذى يأتيه الوحى الإلهى « إن هو إلا وحى يوحى » .

تطرق شاكر مصطفى فى كتابه التاريخ العربى والمؤرخون إلى الحديث عن اشتغال بالنظر فى المستقبل على صعيد علم التاريخ الذى قال عنه « إن التاريخ علم عربى إسلامى ، أو يمكن اعتباره كذلك » موضحاً أن كافة الأمم تشترك فى النزعة التاريخية ، ومع ذلك فإننا نلاحظ « أنه ما من أمة فى الأرض قبل العصور الحديثة كتبت فى التاريخ .. مثل ما كان فى العهد العربى الإسلامى » . وقد ذكر شاكر مصطفى وهو يتتبع التدوين التاريخى فى حضارتنا ، كيف « دخل على التاريخ رافد تنجيمى لم يستطع التأثير الواضح فيه ، وبقى غريباً عنه لأنه ميدان التاريخ الماضى ، بينما ميدان التنجيم هو التنبؤ بالمستقبل . وكل ما أفاده التاريخ هو محاولة بعض المؤرخين تصحيح أو ضبط بعض الأحداث التاريخية عن طريق الأزياج والحسابات الفلكية » . وتحدث عن ميشى بن أثرى وهو يهودى عاش من أيام المنصور إلى أيام المأمون يصفه ابن النديم بأنه « كان أوحد

زمانه فى علم الأحكام » . وقد كتب كتاب الدول والملل ، وكتاب السلطان ، وكتاب الواحد والعشرين فى القراءات والأديان والملل . وأوضح شاكر مصطفى أن علاقة التاريخ بالنجوم والفلك نجمت عن امتداد المنجمين أنفسهم على ميدان التاريخ . وقد جعل إخوان الصفا مما ينبغى على المنجم معرفته معرفة التواريخ والبدايات والملل والدول وتبدل الأشخاص على سير الملك . فالنظر فى المستقبل حتى عند « المنجم » يقتضى توافر ركن التاريخ لديه والإحاطة بالماضى . وهناك روافد أخرى لعلم التاريخ عنيت بالنظر المستقبلى نأت بنفسها عما يعتور التنجيم من رجم بالغيب .

نستطيع أن نرى هذه الروافد فى علوم الدين التى عرفت نظراً مستقبليا ومحاولات فى التنظير لآفاق الأيام . وقد أشار محمد بريش فى بحثه « حاجتنا إلى علوم المستقبل » إلى تجليات الاهتمام بالمستقبل فى العناية بالمقاصد، وفى الأخذ بالمصالح ، وفى صياغة فن لم يسبق إليه ، اصطلح مبتكروه على نعته بـ « اعتبار المآل أو المآلات » . وأوضح أن قاعدة هذا الفن هى « أن البت فى الحال يقتضى الإحاطة بالمآل.. فلا يفتى المفتى إلا وهو محيط بما ستؤول إليه فتواه، ولا يؤخذ القرار من أى سلطة كانت إلا وهى مدركة لما سيترتب على قرارها مستقبلاً ومآلا من المستجدات والمحدثات ، حتى صار اعتبار المآل شرطاً من شروط العمل بالفتوى والبت فى قضايا الناس والقيام بمصالحهم » . ويذكرنا هذا الحديث عن الحال والمآل بما قاله ألڤين توفلر فى كتابه « صدمة المستقبل » إن صورة المستقبل تستطيع إمدادنا بنظرات قيمة عن حاضرنا ، وبما يردده المشتغلون بدراسة المستقبل « إن الذى يتشوف غده يكون أكثر إدراكاً أين يقف اليوم » . ويلاحظ بعض هؤلاء المشتغلين من أبناء الحضارة العربية الإسلامية أن علم أصول الفقه الذى يتكامل مع علم المقاصد قادر على إغناء البحث فى منهج دراسة المستقبل ، بما فيه من تحليل وبرهان . ويشير محمد بريش بخاصة إلى باب التعارض والترجيح من بين أبواب أصول الفقه لكونه أشدها ارتباطاً

بالدراسات المستقبلية ، ويصفه بأنه أخصب هذه الأبواب وأشدها مطالبة بتشبيت القواعد وإمعاناً فى توضيح المقاصد . وأذكر أن إشارة تكررت فى تعليقات أساتذة علوم الدين على حديثى عن دراسة المستقبل فى « مركز الملك فيصل للبحوث » إلى « الأرأتيين من فقهائنا الذين يطرحون فروضاً مستقبلية فى تساؤلات يستهلونها بقول (أرأيت) » .

يحفل التراث الإنسانى بعامة وتراث حضارتنا العربية الإسلامية بالنظر فى المستقبل على صعيد الإدراك الروحانى . وقد قدم ابن خلدون فى المقدمة رؤية علمية نقدية لهذا النوع من النظر . وذلك عند حديثه عن « العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه » . وقد استهل هذا الحديث بالوقوف أمام عالم الحس وعالم الفكر وعالم الأرواح والملائكة ، وفى تتبع حلقات عوالم المخلوقات من نبات وحيوان وإنسان وملاحظة التجاور بين آفاقها ، « الذوات التى فى آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التى تجاورها استعداداً طبيعياً ، النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان وكما فى القِرَدة التى استجمع فيها الكيْس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية » ، وصولاً إلى القول « وفوق العالم البشرى عالم روحانى ، شهدت لنا به الآثار » . وقد عرض ابن خلدون لثلاثة أصناف من النفوس البشرية حسب تعاملها مع الإدراك الروحانى ، وذلك فى حديثه عن المدركين للغيب من البشر وتفسير حقيقة النبوة والوحى والكهانة والرؤيا والإخبار بالمغيبات ، وخصص فصلاً فى « إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها » ، وانتهى من حديثه عن أشخاص فى النوع الإنسانى يخبرون بالكائنات قبل وقوعها من عرافين وناظرين فى أجسام شفافة وفى قلوب الحيوانات وأكبادها وغطائها وأهل الزجر فى الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب .. وكذلك المجانين .. والنائم والميت لأول موته .. وأهل الرياضيات من المتصوفة ، إلى القول « وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل » .

وفنَّد ابن خلدون مزاعم بعض الناس أن هناك

مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس مثل المنجمين وضاربى الرمل . وتحدث أيضاً عن طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذى هو مدارك النفس الروحانية ، ولا من الحدس المبنى على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ، ولا من الظن والتخمين الذى يحاول عليه العرافون ، « وإنما هى مغالط يجعلونها كالمصائد لأهل العقول المستضعفة » . كما تحدث عن « حساب النيم » « وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق » ، ومنها « الزايرجة » المسماة زايرجة العالم « وهى غريبة العمل .. وصورتها .. فيها دائرة نحطية فى داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات الروحية وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم » ، « والمعاياة » التى تعتمد على النسبة والتناسب » . وانتهى ابن خلدون فى رؤيته العلمية النقدية لهذا النوع من النظر فى المستقبل إلى القول « وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ، ولايثبت لها خبر صادق فهو غيب لا يمكن معرفته » .

وتكمن أهمية استحضار هذه الرؤية النقدية فى حديثنا عن « علم دراسة المستقبل » بمفهومه الحديث فى أنها تقدم ضوابط علمية تحمى هذه الدراسة وترسم خطا فاصلاً بينها وبين كل ما هو غير علمى .

يبقى لنا فى حديثنا عن تأصيل هذا الاجتهاد العلمى فى دراسة المستقبل أن نقف أمام الاشتغال فى النظر المستقبلى فى دائرتنا الحضارية خلال القرن العشرين الميلادى الموافق الرابع عشر الهجرى ، وهو القرن الذى شهد بدايات دراسة المستقبل فى دائرة الغرب الحضارية على أساس علمى . وأول ما نلاحظه هو تردد كلمة « مستقبل » فى مطلع القرن فى أوساط حركة النهضة الحديثة وتيار الاستجابة الفاعلة فيها ؛ وظهور محاولات جادة فى النظر المستقبلى على أساس علمى قامت بها مدرسة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا . ومن أمثلتها دراسة « المستقبل للإسلام » التى نشرها محمد توفيق البكرى فى المنار عام ١٣٢٠/١٩٠٢ ، واستهلها بقوله « إن مستقبل الأمم يتوقف فى الحقيقة على أمرين

طبيعيين هما كثـرة السكان وخصب المكان » ، وناقش هذين العاملين وأسباب انتشار الإسلام فى فصلها الأول ثم أسباب الانحطاط ووسائل الارتفاع فى فصليها الثانى والثالث ، وقد رد عليه محمد فريد وجدى بدراسة « كيف يكون المستقبل للمسلمين » فى العدد التالى من المنار . ويمكن أن نأخذ فكرة عن الحوار الذى دار حول « مستقبل الإسلام » فى مطلع هذا القرن وشارك فيه آخرون من أعلامنا فيما كتبه فهمى جدعان فى كتابه « أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث » .

ونلاحظ أيضا أن هذا الحوار تبادل التأثير مع حوار كان يجرى فى دائرة الغرب الحضارية حول هذا الموضوع ومستقبل عالمنا بعامة ، ضمن ظاهرة التفاعل الحضارى بين الدائرتين . وقد اتسم بالغنى بالأفكار وبالعلمية التى ميزته عن محاولات نظر فى المستقبل ظهرت فى تلك الفترة معتمدة على « الزايرجة » التى نقدها ابن خلدون ؛ ومثل طريف عليها ماقام به محمود الفلكى العسكرى سنة خمس وعشرين بعد ألف وثلثمائة هجرية وأسماها « المجلة الكبرى فى زايرجة العالم الأخروى » ونشرها فى كتابه فى هذا الموضوع « المنتخب النفيس من علم نبى الله إدريس » . كما نلاحظ أن قفزة حدثت فى النظر المستقبلى على أساس علمى فى وطننا العربى منذ الستينيات بفضل جهود مفكرين رواد ذكرنا منهم قسطنطين زريق وزكى نجيب محمود ممن أسهموا فى التعريف بدراسة المستقبل على النمط العلمى الحديث ، وممن ألفوا كتباً تضمنت رؤى مستقبلية . ونذكر من هؤلاء مالك بن نبى الذى كتب « الأفريقية الآسيوية » ، وجمال حمدان الذى حفل كتابه استراتيجية الاستعمار والتحرير برؤى مستقبلية ، تحدثت عنها فى مقال « جمال حمدان ورؤاه المستقبلية » نشرته إثر رحيله عام ١٩٩٣ . كما نذكر المهدى المنجرة الذى أصدر مؤخراً كتابه « الحرب الحضارية الأولى » مضمناً إياه بعض دراساته المستقبلية وحواراته ، وحسن صعب الذى شغل بمقاربة الإنماء بنظرة مستقبلية ، من بين آخرين .

تبدو الحاجة ماسة فى ضوء هذا الحديث عن تأصيل علم دراسة المستقبل إلى أمرين :

أولهما - بذل مزيد من الجهد فى البحث فى التراث فى مختلف مجالات العلوم عن الاشتغال بالنظر المستقبلى على أساس علمى ، آخذين فى الاعتبار ما قاله شاكر مصطفى فى كتابه التاريخ العربى والمؤرخون « إن علم التاريخ الإسلامى مثله كمثل كافة نواحى النشاط الفكرى فى التراث لم يبحث بعد : لا درس رجاله ولا أحصيت مؤلفاته ولا جرى مسح عام لميدانه ولا رسم فلكه الفكرى الأعمق ولا كشف عن مناهجه وطرقه وفلسفته فى بحث جاد كامل . والأمر الآخر إيلاء عناية خاصة لكتابة تاريخ واف لدراسة المستقبل فى وطننا على أساس علمى فى القرن العشرين ، تنظيراً وتطبيقاً ، ليكون الانطلاق منه إلى العمل لازدهار « علم دراسة المستقبل » .

البحث فى مناهج دراسة المستقبل :

إن إزدهار علم دراسة المستقبل يقتضى بذل مزيد من الجهود فى البحث فى مناهجه وصولاً إلى بلورة المنهج العلمى الأمثل فى مقاربته . وقد عرضت فى كتابى عن دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة المناهج التى يجرى اتباعها ورأيى فى مقاربته برؤية مؤمنة . ولا أجد لدَى الآن ما أضيفه بشأن هذه النقطة .

تحديد مصطلحات دراسة المستقبل :

كذلك فإن ازدهار علم دراسة المستقبل يتطلب الاتفاق على المصطلحات التى نستخدمها فيه وتحديدها بوضوح ودقة . وإذا كان المشتغلون فى النظر المستقبلى قديما استخدموا مصطلحات التنبؤ والإخبار بالغيب وكشف الطالع والتنجيم والتكهن والرؤيا (بالألف الممدودة) وغيرها ، فإن المشتغلين فيه على أساس علمى اليوم فى الغرب يستخدمون مصطلحات أخرى جديدة مثل التوقع والتخمين والتقدير والإسقاط والتخطيط والتصميم والاستكشاف والتبصر والترقب والتطلع والتحسب والاحتراس والاستهداف والنماذج والمستقبلية والمستقبلات (بالجمع) ، فضلاً عن استخدامهم بعض المصطلحات القديمة مثل التنبؤ والتكهن .

لقد حرص المشتغلون بدراسة المستقبل فى وطننا العربى على النظر فى هذه المصطلحات الجديدة ، وانتقاء الكلمات العربية التى تعبِّر

بدقة عن معانيها حين قاموا بترجمتها . ونجد مثلاً على ذلك فى كتاب « صور المستقبل العربى » لإسماعيل صبرى عبد الله وإبراهيم سعد الدين وعلى نصار ومحمود عبد الفضيل الذى نشره مركز دراسات الوحدة العربية . فمصطلح Long Term Planning هو التخطيط طويل المدى ، ومصطلح Prophecies تنبؤات ومصطلح Projection إسقاط ، ومصطلح Fore casting تنبؤ ، ومصطلح Intuitive حدسى ، ومصطلح Explorotory استكشافى ومصطلح Normative استهدافى ، ومصطلح Models نماذج . وتتعدد أحيانا الاجتهادات فى ترجمة هذه المصطلحات . ومثل على ذلك ترجمة مصطلح Antici pation بالفرنسية إلى تقديم أو تبين أو سبق أو توقع ويقترح واحد منها كلمة « ابتسار » التى يراها محمد بريش الأفضل للدلالة على المصطلح الفرنسى بالعربية وهى من « البَسر » « الاستعجال بالشىء قبل أوانه » . وقد قام بالعودة إلى معانيه الأخرى فى لسان العرب ، ومنها بسَرَ النخلة أى لقَحها قبل الأوان ، وأوضح أن مما يزيد تمسكه بها « أن علوم المستقبل تريد نوراً فى ظلمات الزمن القادم ، وتبحث عن ضمانات ارتواء فى أودية الغد وسبله » ، وبسر النهر عند ابن منظور إذا حفر فيه بئراً وهو جاف . وتتجه الأنظار إلى مجمع اللغة العربية ومجامعنا بعامة لمناقشة هذه الاجتهادات فى تعريب مصطلحات دراسة المستقبل الأجنبية أو ترجمتها ، واعتماد ما تراه الأنسب منها .

نجد أيضاً أن بعض المشتغلين بدراسة المستقبل من العرب عمدوا إلى استخدام مصطلحات « عربية » فى دراساتهم المستقبلية للدلالة على خطواتها وعناصرها وغير ذلك من أمور تدخل فى عملية الدراسة ، وحددوا مفاهيم هذه المصطلحات بدقة ووضوح . ومن أمثلة ذلك مصطلح « الرؤية » الذى تكتمل به عملية الدراسة ، وقد طرحته فى دراساتى وشرحته فى كتابى « رؤى مستقبلية عربية » فى ضوء ما جاء فى المعاجم وما قاله الراغب الأصبهانى فى تفسير غريب القرآن بخاصة ، منتهيا إلى أن الرؤية هى « إدراك بحاسة

وتخيل وتفكر وعقل » وهذه جميعها تدخل فى الدراسة المستقبلية . كما استخدمت مصطلح « الاستشراف » للدلالة على الخطوة الأولى فى عملية الدراسة التى تبدأ بالنظر فى الواقع القائم بنظرة شمولية . وهو من الشرف الذى هو الحسب بالآباء والعلو ، ويتضمن « التطلع والنظر وحديث النفس والتوقع » . واستخدم آخرون هذا المصطلح للدلالة على « دراسة المستقبل » بمجموعها ، كما فعل مشروع استشراف مستقبل الوطن العربى . واجتهدت فى طرح مصطلح « التشوف » للدلالة على الخطوة الثانية فى عملية الدراسة التى تقرن النظر فى الواقع القائم بتتبع مجرى حركة التاريخ فى الماضى وتنتهى بالتهيؤ لإدخال عنصرى الحلم وإرادة الفعل . والتشوف هو الاستجلاء من خلال التطلع والنظر الشامل وفيه معنى الارتفاع بغية الإحاطة بالنظر . وقد استخدمه ابن خلدون حين تحدث عن « تشوف الأمور المستقبلية » . واستخدمت مصطلح « الرؤية المؤمنة » فى دراسة المستقبل للدلالة على الرؤية التى تنطلق من الإيمان بالله سبحانه فسيحكم هذا الإيمان منهج النظر والبحث والدراسة ، ويأخذ مكانه قبل المنهج بما يعنيه من تصديق لما جاء به الوحى . والرؤية تكون مؤمنة على صعيد الاعتقاد مصدقة تبطن من التصديق ما تظهر .

يحرص هؤلاء الذين يقاربون المستقبل برؤية مؤمنة على تجنب أى مصطلح قد يوحى بالرجم بالغيب أو بإنكار الغيب أو بالمعرفة القطعية للغيب ، فيتجنبون مثلا مصطلح « التنبؤ » ويفضلون « النظر والرؤية » كما نجدهم حريصين على الإحاطة بمصطلحات علم التاريخ التى استخدمها أجدادنا والإفادة منها . ويجتهدون فى تحديد مفاهيمها الحديثة فى ضوء ما جاء فى كتب التعريفات والمصطلحات التى ظهرت فى دائرتنا الحضارية .

يلاحظ المشتغل بدراسة المستقبل مدى حاجته إلى وفرة المصطلحات ، ليعَبر بها عن « الاستشراف والتشوف والرؤية والصنع » بما يكفل التوضيح الدقيق للمعنى الذى يقصده . وهو واجد فى اللسان العربى بغيته بما يحفل به من غنى مفرداته وبما أسماه « محمد

عنبر » جدلية الحرف العربى فى كتابه الذى يحمل هذا الاسم . وعليه أن يحدد مفهوم المصطلح الذى يستخدمه بدقة ، ويميز بينه وبين مصطلح آخر يبدو مرادفا له . فما هو مثلاً مفهومه « للزمان » ومتى يستخدم «الوقت » و «الحين » و «العصر» و « الدهر » ؟ أو « السنة » أو «العام» ؟ أو « النظر » أو « البصر » أو « البصيرة » أو « الرؤية » أو « الرؤيا » ؟ وإذا كان علم دراسة المستقبل علم نظرى ؛ ومبدأ كل علم نظرى وعمل اختيارى هو الخواطر والأفكار التى توجب التصورات ، التى تدعو إلى الدراسات ، التى تقتضى وقوع الفعل ، وتعطى العادة بكثرة التكرار ؛ كما أورد ابن قيم الجوزية فى « الفوائد » ، فما هو التحديد الدقيق لمفاهيم الخاطرة والفكرة والتصور والإرادة والفعل ؟

واضح أن الاشتغال بعلم دراسة المستقبل فى وطننا العربى سوف يولّد حركة نشطة فى طرح المصطلحات التى يتطلبها هذا العلم . ومرة أخرى تتجه الأنظار إلى مجامعنا العربية لوضع كشاف بهذه المصطلحات .

وبعد ..

فالحديث ذو شجون عن « علم دراسة المستقبل » الذى هو امتداد لعلم التاريخ . وإن لنا أن نعمل لازدهاره فى وطننا العربى كما عمل أجدادنا لازدهار علم التاريخ ، متطلعين إلى إسهام كبير فيه على الصعيد العالمى .

أحمد صدقى الدجانى

عضو المجمع

المراسل من فلسطين